

ملحق لدرس الرواية وكتابة التاريخ

"المؤرخ يقول قولاً سلطوياً "نافعاً" ولا يتقصى "الصحيح"، يهمل تاريخ المستضعفين ويوغل في التهميش إلى تُخوم التزوير وإعدام الحقيقة، ويكتفي بـ"تاريخ محلي" مخترع، دون أن يقارنه بـ"التاريخ الكوني المنتصر"، أو يتوقف أمام الأسباب التي خلقت "تاريخاً قائداً" [...]. ولهذا يقوم الروائي العربي بتصحيح ما جاء به المؤرخ وبذكر ما امتنع عن قوله، مؤكداً الكتابة الروائية "علم التاريخ" الوحيد، أو كتابة موضوعية تُسائل ما جرى، دون حذف أو إضافة. [...] ومع أن في الموضوعية الروائية ما يثير التشاؤم، فإن هذا التشاؤم أكثر نفعاً من تقاؤل إيديولوجي ضليل".¹

« L'historien ne dit pas le vrai, mais il dit le récit utile qui sert le pouvoir. Sa marginalisation de l'histoire des vaincus va tellement loin qu'elle devient falsification et négation de la vérité. Il se contente d'une histoire locale inventée, sans la comparer avec l'histoire hégémonique globale ni s'arrêter devant les causes de la création d'une histoire dominante [...]. C'est pour cela que le romancier arabe s'attèle à corriger le récit de l'historien et à mentionner ce que ce dernier n'a pas pu exprimer. Il affirme ainsi que l'écriture romanesque est la seule science historique et la seule écriture objective qui interroge le passé sans ajouts ni omissions. [...] Bien que l'objectivité romanesque soit source de pessimisme, ce dernier est plus utile qu'un optimisme idéologique et obscurantiste ».

في أعمالك كما في أعمال الكثير من الروائيين العراقيين إشارات إلى لحظة التحول في تاريخ العراق. بعضكم يرجعها إلى إعدام قاسم، والآخر إلى إعدام الأسرة الملكية الحاكمة أو إلى وصول صدام أو الحروب الأميركية والاجتياحات. هل الرواية العراقية هي كتاب التاريخ البديل لبلد بمنازل كثيرة كما يقول كمال الصليبي؟

يمكن للرواية أن تكون حيزاً مهماً نقرأ فيه تواريخ البلاد غير الرسمية، المهمّشة، المختلفة، ونصغي فيه إلى الأصوات الضائعة والمسحوقة. الوضع في العراق كارثي ومعقد. تحضرنى كلمات سركون بولص عن «انفجارات التاريخ» و«البلاد التي تكّست على صدرها الكوابيس». فمن تبعيث الثقافة ومشروع إعادة كتابة التاريخ من منظار بعثي في زمن الاستبداد، إلى الخراب الذي أحاقه الحصار بكل شيء، إلى تدمير الدولة ومؤسساتها، وضياح ونهب عدد من أراشيفها عام ٢٠٠٣، إلى مأسسة الطائفية وموجة كتابة تاريخ العراق طائفيًا، وانحطاط النظام التعليمي والمؤسسات الأكاديمية. آخذين كل هذا بنظر الاعتبار، فإن التاريخ يشوّه بشكل ممنهج، مع انعدام إمكانيات إنتاج دراسات ومعرفة تاريخية رصينة أو حتى مقبولة. وهنا يمكن للكتابة الروائية أن تساهم في كتابة التاريخ البديل. هذا لا يعني أن لها الأفضلية أو الأولوية. لكنها يمكن، أيضاً، للأسف، أن تعيد إنتاج التاريخ الطائفي، أو البعثي، أو غيره، وهذا يعتمد على مقاربة الكاتب/ة. لا بد من أن أشدد على أن قراءة الرواية كتاريخ بديل أمر لا يقتصر على العراق أو لبنان. ولا على الدول التي تعاني من ويلات الحروب وانهايار المؤسسات. توفيت قبل فترة الروائية الأميركية العظيمة توني موريسون وأنا أعشق أعمالها وأدرّسها في إحدى حلقاتي في «جامعة نيويورك». ولطالما قيل إن رواياتها تضيء تجربة وتبعات العبودية في الولايات المتحدة وتكتب

¹ DARRĀĠ Fayṣal, *Al-riwāya wa-ta'wīl al-tārīḥ. Naẓariyyat al-riwāya wa-l-riwāya al-'arabiyya*, Bayrūt & al-Dār al-Bayḍā', al-Markaz al-ṭaqafī al-'arabī, 2004, p. 5-6.

تاريخ السود بعمق قلماً نجده. يقول زميلي المختص بالعلوم السياسية وبتاريخ أميركا إن رواية «المحبوبة» كشفت له وعلمته ما لم يجده في عشرات الكتب الأكاديمية.

في «يا مريم» تتصارع رؤيتان حول العراق، يوسف الذي يغض الطرف عن مآسي الحاضر ويعيش في ماضيه كما تتهمه مها، وهي التي تقول: «سنترك لهم البلد ليحرقوه ويمثلوا بجثته». أي الرؤيتين انتصرت اليوم بعد سنين سبع من كتابتك للرواية؟

صحيح أن يوسف يعيش في الماضي، لكنه يختلف عن مها بأنه لا يقارب التاريخ والصراعات الدامية من منظور ديني أو طائفي. ولا يؤمن أن الطائفية هي قدر البلاد الذي لا خلاص منه. كنت قد كتبت «يا مريم» ونشرتها قبل ظهور «داعش» واحتلالها الموصل ومدناً أخرى وفتكها بالأقليات وكل من يقف ضدها من «الأكثرية». لكن الجذور والبوادر كانت موجودة. لقد وقع ما كانت مها تخشاه وهُجِر مئات الآلاف الذين ما زالوا يرزحون في المخيمات إلى اليوم. زرت الموصل في بداية السنة وشاهدت الدمار. وما سمعته عن الفساد وعن سرقة أملاك المهجرين في الموصل وغيرها ينذر بكارث جديدة. يجني المنتصرون ثمار النصر، سياسياً ومادياً، والمدينة مهملة وأهلها لوحدهم. أما الصراع بين الرؤيتين فما زال مستمراً، وسيطول. أحاول أن أتقاعل بحماسة وتصميم مئات الآلاف من الشباب الذين تظاهروا ضد الطائفية وضد سدنتها في مدن العراق، لاستعادة العراق وتخليصه من براثن الطبقة السياسية الحاكمة. لكنه صراع طويل وعنيف، تزيده تعقيداً وصعوبة المعادلات والصراعات الإقليمية، وتغلغل الفساد في نخاع البلاد، وتحولها إلى ساحة مفتوحة لشبكة أخطبوطية من كبار اللصوص. وهؤلاء لهم نفوذهم وصلاتهم وأسلحتهم².

² NĀSĪR AL-DĪN, Muḥammad, « Sinān Anṭūn: al-‘Irāq allādī takaddasat ‘alā ṣadrihi-l-kawābīs », *Al-Aḥbār*, 31 août 2019 : <https://al-akhbar.com/Kalimat/275705>.